المحاضرة الأولى

١- نحو تحديد المفهوم :

الابستمولوجيا كلمة إغريقية مركبة من " ابتس_مبي Epistémé " و تعني العلم و " لوغوس Logos " التي تعني دراسة : (دراسة العلم) . و إذا تصفحنا المعاجم و القواميس سنجد عدة تعاريف معجمية تساعدنا على إبرار و توضيح معنى اللفظ من حيث هو مفهوم. لهذا الغرض سوف نورد عدة تعاريف محاولين من خلال مناقشتها الوقوف على نقاط التلاقي و الاختلاف في المعنى المعطى للمفهوم.

التعريف الأول :

" الابستمولوجيا هي الدراسة النقدية للعلوم الدقيقة و الإنسانية ، وكذلك تكوين المعرفة العلمية و ظروفها ".

كما يبدو، يركز هذا التعريف على استقلالية الابستمولوجيا باعتبارها فرعا معرفيا له مجال خاص للدراسة هو سيرورة تشكل المعرفة العملية وذلك باعتماد طريقة محددة تتمثل في الدراسة النقدية.

التعريف الثاني

"الابستمولوجيا فرع من الفلسفة يهتم بدراسة تاريخ ومناهج ومبادئ العلوم."

يربط هذا التعريف الابستمولوجيا بإطار معرفي أوسع هو الفلسفة معتبرا إياها فرعا متخصصا من ذلك النشاط المعرفي الواسع .ويلاحظ عدم اختلاف هذا التعريف عن السابق من حيث تحديد موضوع الاهتمام غير أنه لا يشير إلى طريقة الدراسة.

التعريف الثالث

"الابستمولوجيا هي الدراسة التي تبحث في العلوم من حيث موضوعاتها و مبادئها وقوانينها و علاقتها بعضها ببعض وتكشف عن أصلها ومداها وتطلق أيضا على نظرية المعرفة ".يشير هذا التعريف إلى نفس العناصر الواردة في التعاريف السابقة وإن بصياغة مغايرة .لكن ما يثير الانتباه هو إضافة مهمة تتعلق بالمطابقة بين الابستمولوجيا ونظرية المعرفة .لعل ذلك مؤشرا عن الغموض وعدم الدقة الذي يكتنف استعمال المفهوم كما سنوضح فيما بعد.

التعريف الرابع

"...معنى الابستمولوجيا إذن نظرية العلوم ،أو فلسفة العلوم ، أعني دارسة مبادئ العلوم وفرضياتها ونتائجها ، دارسة انتقاديه توصل إلى إبراز أصلها المنطقي وقيمتها الموضوعية ".يتميز هذا التعريف ،كما نرى، بشيء من التفصيل وهو تعريف مستقى من تعريف "لالاند" الذي نورده فيما بعد. لعل أهم شيء يمكن ملاحظته هو وصف الابستمولوجيا باعتبارها نظرية أو فلسفة للعلوم.

التعريف الخامس

" تعني هذه الكلمة (أي الابستمولوجيا)فلسفة العلوم و لكن بمعنى أدق، فهي ليست دارسة خاصة بمناهج العلوم، لأن هذه الدراسة موضوع للمنهجية وهي جزء من المنطق، كما أنها ليست أيضا تركيبا أو توقعا حدسيا للقوانين العلمية (على الطريقة الوضعية)،

أنها بصفة جوهرية الدراسة النقدية للمبادئ و الفرضيات و النتائج العلمية ،الدراسة الهادفة إلى بيان أصلها (المنطقي لا النفسي) وقيمتها الموضوعية. وينبغي أن نميز الابستمولوجيا عن نظرية المعرفة ،بالرغم من أنها تمهيد لها وعمل مساعد لا غنى عنه ،من حيث أنها تدرس المعرفة بتفصيل و بكيفية بعدية في تنوع العلوم والموضوعات لا في وحدة الفكر".

تجدر الملاحظة أن هذا التعريف الذي يقدمه "لالاند" يعتبر أكثر دقة وتفصيلا بحيث يميز الابستمولوجيا عن أنواع عديدة من المعارف مثل المنهجية والمنطق والفلسفة الوضعية رغم أنه لا ينفي الصلة التي تربطها بهم في نفس الوقت .ولعل أهم ملاحظة هي الفصل بينها وبين نظرية المعرفة وفي المقابل ربطها بفلسفة العلوم من حيث هي صنف متخصص منها.

بالرغم من الاختلافات القائمة بين هذه التعاريف من حيث تحديد موقع الابستمولوجيا وتعيين طبيعتها كفرع متخصص من المعرفة وتبيان علاقتها بمختلف فروع المعرفة مثل الفلسفة ونظرية المعرفة، والمنطق ...الخ، فإن مجمل التعاريف تلتقي حول بعض العناصر الأساسية مثل تلك التي تشكل موضوع الدراسة في الابستمولوجيا: مبادئ وفرضيات ونتائج العلوم .لكن يبقى التحديد الدقيق لمهمتها بمثابة نقطة الخلاف التي يدور حولها جدل المهتمين.

إذا كانت الابستمولوجيا لا تهتم بدراسة مناهج العلوم كما يقول البعض ولا بصياغة نظرية للمعرفة ، كما يرى الاخرون، فماهي مهمتها يا ترى ؟ يبدو أن النقطة التي يقع عليها الإجماع هي أن مهمتها تتمثل في الدراسة النقدية للمعرفة . وهذه كما يبدو صياغة غير دقيقة تفتح المجال أمام عدة تساؤلات منها: هل تشكل المعرفة بدون تمييز موضوعا للابستمولوجيا؟أم أن نوعا محددا منها فقط يشكل موضوع الدراسة ؟ يمكننا القول أن هناك اتفاقا نسبيا على اعتبار المعرفة العلمية وحدها موضوعا للدراسة النقدية من طرف الابستمولوجيا ،لكن ما المقصود بالدراسة النقدية ؟هذا التعبير الذي يتردد في معظم التعاريف .إنها تعني توضيح الأسس والمبادئ وكشف المسلمات والفرضيات التي تقوم عليها معرفة علمية متخصصة سواء تعلق الأمر بظواهر العالم الطبيعي أو المجتمع الإنساني ، كما يعني ذلك تقييم النتائج التي يتم التوصل إليها با لنطر إلى معايير معينة هدفها أبراز مدى صدق وموضوعية تلك المعارف المحققة.

ويكفي لتوضيح الخلاف القائم حول تحديد مهام الابستمولوجيا أن نشير الى موقف اثنين من الابستمولوجيا المعاصرين مثل، باشلار، وبياجيه . إذ نجد باشلار يحدد مهمتين أساسيتين للابستمولوجيا التي يعتبرها فلسفة للعلوم .الأولى تتمثل في القيام بتحليل نفسي للمعرفة الموضوعية حيث يكون موضوع التحليل هو لاشعور الباحث والهدف هو تعريف على الحواجز التي تحول دون تحقيق المعرفة الموضوعية أو ما يطلق عليه باشلار "العوائق الابستمولوجيا ". أما المهمة الثانية فتتمثل في إبراز القيم الابستمولوجيا ،أي توضيح معنى ودلالة الاكتشاف العلمي من الناحيتين الثقافية و النفسية.

أما بياجيه فيحدد للابستمولوجيا مهمة مغايرة مؤكدا ضرورة اهتمامها وتركيزها على البحث في نشوء المفاهيم والمقولات العلمية وتطورها .هذا ما يفسر الميل الواضح لدى بياجيه الى ربط الابستمولوجيا بعلم النفس التكويني وهو ما يفسر أيضا صياغته لمفهوم الابستمولوجيا النشوئية التي تعني نظرية المعرفة المؤسسة على تحليل نمو المعرفة عند الطفل، كما تهتم بنسق المفاهيم التي يستخدمها كل علم خلال مسيرة تطوره.

لابد من الإشارة إلى أن تحديد معنى كلمة ابستمولوجيا من حيث هي مفهوم يشير إلى حقل معرفي معين ليس موضوع خلاف بين الباحثين فحسب ، بل بين اللغات كذلك. إذ بينما يستعمل لفظ الابستمولوجيا في اللغة الانكليزية كمرادف لنظرية المعرفة، نجدها تبتعد عن ذلك في اللغة الفرنسية حيث يستعملها معظم المفكرين بمعنى "فلسفة العلوم"

في الأخير يمكننا القول مع الأستاذ المرزوقي أن الابستمولوجيا قسمان: خاصة وعامة .أما الأولى فتختص بدراسة العلوم كل واحد على انفراد ،"وهي وليدة انكماش معرفي مزدوج : وجودي وابستولوجي". في حين يكون موضوع الثانية دراسة المعرفة العلمية بصفة عامة، وهي لا تعدو أن تكون في النهاية سوى الفلسفة ذاتها. لأن هذه الأخيرة ليست سوى "وعي الذات العارفة بالمعرفة ككل والسعي إلى رد كل ماعدا هذا الوعي إليه ". أما من حيث العلاقة بينها فإن الابستمولوجيا الخاصة توصل إلى العامة إذ بينما تقتصر الأولى على مهمة الوصف تقوم الثانية بمهمة التفسير ، ومن ثم فهي تشكل نظرية عامة في المعرفة أي "نظرية معرفة فلسفية". ويحصر المزروقي الابستمولوجيا في أربعة مناظر رئيسية :

١. الابستمولوجيا العامة التي أسسها أرسطو التي تعتبر العلم "نسقا ومن القضايا ذات أواصر منطقية" ويعتبر المنطق هو علم العلم
٢. الابستمولوجيا العامة التي أسسها ابن خلدون وهي تعتبر العلم "نسقا من الممارسات التقنية ذات الأواصر الاجتماعية " وتمثل التكنولوجيا علم العلم.
٣. الابستمولوجيا الذاتية التي أسسها ديكارت وطورها كانط وهي صورة باهته عن الأولى ، إذ تقوم على تعويض النسق اللغوي بنسق متعال يتضمن ملكات العقل المتسامي ويشكل المنطق المتعالي علم العلم.
٤. الابستمولوجيا العامة التي أسسها وطورها هيغل وفيها يقع استبدال المجتمع بماهية خيالية هي الفكرة المطلقة التي تتجسد عبر التاريخ .
وهي تشكل صورة باهتة عن الثانية وفيها يعتبر "التاريخ الأسطوري علم العلم ،وفلسفة التاريخ صورة العلم ".

خلاصة هذا العرض البسيط لبعض التعاريف و الآراء هي أن مفهوم الابستمولوجيا يتميز بدرجة من الغموض بحيث لا يشكل موضوع اتفاق لدى المهمتين رغم وجود نقاط التقاء أساسية ، وترتبط الاختلافات بالمدارس و التيارات الفكرية السائدة حول موضوع المعرفة عموما والعلم بما هو نشاط متخصص يعتمد قواعد وإجراءات محددة.

٢_تكوين الابستمولوجيا كمعرفة مستقلة:

يعتبر ظهور الابستمولوجيا كنوع معرفي قائم بذاته ومستقل عن باقي الفروع المعرفية المتخصصة إحدى النتائج الأساسية لتفتت التصور الأحادي للعالم الذي كان سائدا في

القرون الوسطى في أوروبا، كما أنها ثمرة لاكتشاف التنوع الهائل في وجهات النظر نحو أنساق الوجود .وعلى حد تعبير كارل ما نهايم "عملت الابستمولوجيا على إنها الشك باعتمادها على نقطة انطلاق لا تستند إلى تلقين وثوقي لنظرية الوجود، ولا إلى نظام كوني يستمد مصداقية من نوع متعال من المعرفة ، لكن تعتمد على تحليل الذات العارفة". ويحدد ما نهايم الثنائية الأساسية التي تقوم عليها كل الأفكار والتأملات الابستمولوجية التي تتمثل في قطبين هما :الموضوع (أو الشيء)والذات (أو الفاعل) .لذلك تميزت الابستمولوجيا بسيطرة اتجاهين رئيسيين من التفكير .ينطلق الأول من عالم الأشياء الذي يمثل قاعدة لتفسير موقع الذات في النظام الكوني ، والذي تستمد الذات من خلاله كل قدراتها الإدراكية .أما الثاني فينطلق من الذات من حيث هي معطى آنيا لاريب في وجوده ومنها تتم محاولة التوصيل إلى المعرفة الموضوعية الصادقة.

يشير مانهايم إلى تفكك وانهيار النظرة الأحادية نحو العالم وقد كانت مهيمنة حتى نهاية القرون الوسطى حيث وجدت سندا قويا لها في تعاليم الكنيسة وأفكارها. وقد كرست تلك الأفكار نظاما كونيا تمنح من خلاله لكل المواضيع و الأشياء "قيمة وجودية" معينة واضعة إياها في سلم هرمي تحتل فيه تلك الأشياء مراتب محددة. وبذلك سيطر تفسير معين عن قيمة الفكر الإنساني يجد قاعدته وركيزته في عالم الأشياء لكن مع انهيار هذه النظرة، في خضم التغيرات والتحولات العميقة التي شهدتها مجتمعات القرون الوسطى، ظهرت مواقف معارضة تماما لهذا التوجه حيث لم يبق هناك من بديل غير الانطلاق من الذات "أو الفاعل" من أجل تحديد طبيعة الفعل الإدراكي الإنساني وقيمته والبحث عن إيجاد سند لوجود الموضوعي انطلاقا من الذات العارفة.
يمكن إرجاع هذا التقليد الابستمولوجي إلى ظهور وتأسيس التيار العقلي في الفلسفة الفرنسية والألمانية " ديكارت، كانط، لايبنيتز " كما أن أثره واضح في التفكير الابستمولوجي الانجليزي ذي التوجه المثالي – النفسي الذي يمثله فلاسفة مثل هيوم ولوك وباركلي. وهكذا ظهرت مبادئ ابستمولوجية جديدة تحت وقع التغيرات الجوهرية التي عرفتها المجتمعات سواء في بنيانها المادي أو الثقافي. كانت النتيجة بروز تصورات وجهات نظر جديدة أسهمت في إيجاد حل لإشكالية الابستمولوجية. إذ ساد الاعتقاد، كما يقول مانهايم، أنه "من خلال معرفة أصول التمثل الإدراكي يمكنا بلوغ فكرة معينة عن دور ودلالة الذات بالنسبة لفعل المعرفة وكذلك مدى قيمة ومصداقية المعرفة الإنسانية عامة. "لذلك يشكل تحديد طبيعة الذات العارفة في بعديها الفردي والاجتماعي مهمة جوهرية